العنوان:	الموت بين آراء فلاسفة الإسلام ابن حزم وابن مسكويه والغزالي وابن رشد: رؤية نقدية
المصدر:	الإستناد
الناشر:	محمد خروبات
المؤلف الرئيسي:	خروبات، محمد
المجلد/العدد:	ع7
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2023
الشهر:	شتاء
الصفحات:	149 - 162
رقم MD:	1413133
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	القضايا الغيبية، فلاسفة الإسلام، ألم الموت، عذاب القبر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1413133

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

خروبات، محمد. (2023). الموت بين آراء فلاسفة الإسلام ابن حزم وابن مسكويه والغزالي وابن رشد: رؤية نقدية.الإستناد، ع7، 149 - 162. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1413133

إسلوب MLA

خروبات، محمد. "الموت بين آراء فلاسفة الإسلام ابن حزم وابن مسكويه والغزالي وابن رشد: رؤية نقدية."الإستناد7 (2023): 149 - 162. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1413133

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

الموت بين آراء فلاسفة الإسلام ابن حزم وابن مسكويه والغزالي وابن رشد، رؤية نقدية

الأستاذ الدكتور محمد خروبات

جامعة القاضي عياض بمراكش

مقدمة :

يقيم هذا المقال دراسة نقدية لألم الموت عند كبار فلاسفة الإسلام ومنهم ابن حزم رحمه الله المتوفى عام 456هـ، وابن مسكويه رحمه الله المتوفى بتاريخ 421هـ، والغزالي رحمه الله المتوفى عام 505هـ، وابن رشد الحفيد رحمه الله المتوفى بتاريخ 595هـ، كما يقيم رؤية نقدية لمن أنكر عذاب القبر من المعاصرين المنتمين لحقل الدراسات الإسلامية والمحسوبين على البحث العلمي فيها، وقد بسطنا المقال في فقرات محورية يتحقق فيها التوازن بين نقلانية النص وعقلانية الفهم.

1- محور النظريات: ألـم الموت وإثباته

ليس المقصود بالألم هنا الفراغ الذي يحدثه الموت حين يأخذ عزيزا وقريبا، ذلك ألـمٌ غير مقصود في هذه الفقرة، الألم المقصود هو الألم الذي يحدثه الموت حين يحلّ بالجسد، وسنحدّد الكلام عنه من ثلاث وجوه:

- **الأول**: تألم الجسد، وعلامة ألمه تغيّره، التفاف السّاق بالسّاق، شخوص العينين، فتح الفاه، استرخاء العضلات، تأوّهات، زفير، شهيق، بعض الالتفافات يمينا وشمالا، تلك هي غشاوة الموت المعبر عنها في قوله تعالى: **(رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت)**[1]، تلك هي مظاهر حلول الموت في الجسد، أما الألم فيتلاشى بخروج الرّوح.
- **الثّاني**: ما أخبر به الوحي، والوحي غيب، من أنّ للموت سكرات.

---

[1] - سورة محمّد الآية 21.

- **الثالث:** مقدّمات الموت الحقيقية، مثل النّوم والغيبوبة وآلام الأمراض التي تصيب الإنسان، لكنّ ألم المرض شيء وألم الموت شيء آخر.

الألم الحقيقي لا يكون إلاّ في النّزع، والنّزع لا يعني غير نزع الرّوح من البدن، وكلمة النّزع تشير إلى الشدّة **"ونزعنا ما في قلوبهم من غلّ"**[1]، كأنّك تجذب إليك شيئا لتخلصه من شيء هو متمسّك به،لأنّ القلوب في الدّنيا أُشربت الغلّ، كذلك، فالرّوح تنزع من الجسد لأن الرّوح أُشربت الجسد، لذلك يحصل النّزع، والمتمسك هو الجسد، فهو لا يريد مفارقة الرّوح، لقد ألفت الرّوح هذا الجسد، وكذلك الجسد، وتعايشا زمنا، فالرّوح بلا جسد لا تعطي الحياة، والجسد من دونها لا معنى له، خشبة جامدة، فهل يبقى الإنسان هو الإنسان حين تخرج روحه، من يقربه ومن يصحبه؟ وكيف هو وجوده بعد ذلك، إنّها لحظة الافتراق والفراق، نحسّ بالألم حين نفارق عزيزا، لكنّنا نحس بحقيقة الألم حين تفارقنا أرواحنا، عملية النّزع صعبة التمثّل، فراق الرّوح للجسد هو أعظم تفريق يمكن للإنسان أن يتخيّله، فهو مصيبة لا يوجد ما هو أعظم منها، يقول الإمام الغزالي :(فلا تسل عن بدن يجذب منه كلّ عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الرّوح المتألم ؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق، ثم يموت كلّ عضو من أعضائه تدريجيا فتبرد أولا قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكلّ عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدّنيا وأهلها)[2].

2- في الرد على ابن حزم وابن مسكويه

رجلان تعاصرا، ونهلا من معين الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي، أحدهما سُنّي عاش في المغرب وهو ابن حزم، وكانت وفاته سنة 456هـ، والثّاني شيعي رازي، عاش بالمشرق هو ابن مسكويه، وكانت وفاته 421هـ، فإذا كان التّشابه بينهما واردا في هذه الخصوصيات فقد تشابها أيضا في نكران ألم الموت بعد الموت، والسّبب في ذلك هو أنّهما نهلا من فكرة واحدة، وهي فكرة يونانية، ولم يستحضرا ثقافتهما الخصوصية المتمثّلة في ثقافة النّقل، وهما معدودان من عقول النّقل في الثّقافة الإسلامية، نناقش ابن حزم أولا ثم نُثنّي بابن مسكويه.

---

[1] - سورة الحجر الآية 47.

[2] - إحياء علوم الدين 545/4.

أولا - الردّ على ابن حزم

كتب ابن حزم الظّاهري في الموضوع رسالة بعنوان (رسالة في ألم الموت وإبطاله)[1]، لا تتجاوز صفحتين، اختصر الكلام في الموضوع اختصارا، وقد بدأه بكلام الطّبيعيين في الموضوع، وهم على صنفين : صنف يقول بأنّ للموت ألما وصنف ينفيه، ومال ابن حزم إلى رأي النّفاة، حاول أن يتأوّل فيه الحديث المرفوع المتقدّم الذّكر: (إنّ للموت لسكرات)[2]، وما يريده ابن حزم هو أنّ الرّوح إذا فارقت الجسد انتفى الألم، لأنّ الإحساس يموت، فالإنسان يحسّ بالحواس وهو حي، وما قاله من وجه حق من النّاحية الطّبيعية وما جرى مجرى العادة وهو ما سماه ب» البرهان الضروري»، لكنّه لا يستقيم في مخالفة الوحي، لأنّ قائل الحديث نبي، وقد قاله من موقع الوحي أولا ثم من موقع الإحساس ثانيا، وقد تقدّم معنا أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلم قال هذا الكلام وهو يعاني في النّزع، لكن ورد في حديث صحيح تقول فيه فاطمة رضي الله تعالى عنها للنّبي صلى الله عليه وسلم (واكرب أباه !)، فيجيبها صلّى الله عليه وسلم: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم)[3]، أيْ لا كرب بعد الموت، وجواب ابن حزم غير موفّق من وجهين: من الوجه الذي ذكرته آنفا، ومن وجه أنّ الوحي يُخبر بأنّ الميّت حتى بعد الموت يسمع نعال المشيّعين، وهو ما دلّ عليه قول النّبي صلّى الله عليه وسلّم في خطابه لأهل القليب من كفار بدر،فإذا كان الميّت يسمع فهو يحس، ولذلك لم يجز الشّرع كسرعظمه، فكسر عظم الميّت هو ككسر عظمه حيا، ومن وجه ثالث أنّ الموت يُحدث الألم في الجسم حال حلوله فيه، وقد يكون ذلك في دقيقة أو ساعة أو يومين أو حتى أكثر، كم من شخص يحلّ فيه الموت ولا تخرج روحه إلاّ في أيّام، والألم هنا ليس لذاته بل هو كفارة لصاحبه، وأرى أنّ ابن حزم تأثر بنظرية الفيلسوف اليوناني ابيقور في نفي ألم الموت، فالذي غرس الإلحاد في نفوس اليونان هو أبيقورEPICURE، هذا الرجل الذي استغلّ معضلة الموت فبشّر بالإلحاد والوثنية، لقد كان الموت مشكلة عند اليونان، وكان الموت هو الدّافع إلى الاعتقاد في آلهة منحوتة من الأشياء المادية، مجسّمة كإله الشمس وإله القمر وإله البحر وإله المطر وإله الرعد وإله الخير وإله الجمال...مع مجيء أبيقور الذي بنى تصوره الفلسفي على المادّية الدّيمقريطسية

---

[1] - الرّسالة موجودة ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي التي حققها الدّكتور إحسان عباس، أنظر 359/4 .

[2] - أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب المغازي، باب مرض النّبي صلّى الله عليه وسلم ووفاته، أنظر الفتح 144/8 رقم الحديث 4449.

[3] - أخرجه البخاري في جامعه الصّحيح، كتاب المغازي، باب مرض النّبي صلّى الله عليه وسلم ووفاته، أنظر الفتح 149/8 رقم الحديث 4462.

عرف الاعتقاد تحولا جذريا عند أغلب المعتنقين، فقد شنّ حملة على الموت معتبرا الموت لا يعني الإنسان في شيء، ولا ينبغي أن يكلّفهم هم التفكير ليلا ونهارا، ولا وجود له كحقيقة حسّية، يقول في رسالته إلى مينوسيوس: (ألا فلتعد الاعتقاد بأنّ الموت لا يعني شيئا بالنّسبة لنا، فالخير كلّه والشرّ جميعه يكمنان في الحس، لكن الموت حرمان من الحس، ومن هنا فإنّ الفهم الصّحيح هو أنّ الموت لا يعني شيئا بالنّسبة لنا، وذلك يجعل فناء الحياة أمرا يمكن الاستمتاع به لا لأنه يضيف إليه مدى لا نهائيا من الزّمن وإنّما لأنّه يستبعد شوق الإنسان للخلود، فليس هناك ما هو مرعب في الموت، من هنا فإنّه في تكاسل يتحدّى ذاك الذي يقول بأنه يخشى الموت لا لأنه سيكون مؤلما حينما يحل وإنّما لأنّ توقّعه أمر مؤلم، فإذا لم يكن يؤلم عند حدوثه فلا يثير توقّعه إلا خوفا أجوفا، وهكذا فإنّ الموت - وهو أعظم الشرور- لا يعني شيئا بالنّسبة لنا حيث إنّه طالما كنّا موجودين فإنه غير موجود، ولكنّه حينما يحل فإنّنا لا نكون موجودين، وهكذا لا يثير القلق في الأحياء ولا الموتى، فهو بالنّسبة للأوائل ليس موجودا، أما الأخيرون فإنّه لا يصبح لهم وجود حينما يحل)[1].

هكذا واصل أبيقور طرد الخوف من الموت حتى تمكّن من إزالته من كبار الفلاسفة يومئذ كأخيرون ACHERON[2]، وامتدّ تأثير نظريته إلى فلاسفة آخرين من أمثال سبينوزا وجورج سيمون وشوبنهاور وكانط وآخرين، لكنّ ابن حزم استفاد منه فقدان الإحساس بالألم لكون الموت تقضي على الإحساس، والوضع الحقيقي للتقلانية التي تتماشى مع حالة الفطرة تخالف جذريا الوضع الحقيقي للعقلانية التي تتماشى مع الحالة الطّبيعية، وهي الأمور التي فصّلنا الكلام فيها في عمل علمي سابق.

ثانيا - في الردّ على ابن مسكويه

ابن مسكويه، هو أبو علي أحمد بن مُحَمَّد مسكويه الرّازي، نسبة إلى الرّي - وهي بلدة محدّثنا أبي حاتم الرازي مُحَمَّد بن إدريس بن المنذر- في كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، كتب فصلا مهمّا بعنوان (علاج الخوف من الموت)[3]، تكلّم فيه عن الأسباب التي تدفع للخوف من الموت، وهي ستّة أسباب.

---

[1] - الموت في الفكر الغربي لجاك شورون، عالم المعرفة ص 66- 67، وانظر
Essai sur la signification de la mort, Jules Vuillemin p 43

[2] - المصدر السّابق، ص 65.

[3] - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه (ت 421هـ) ص 217 وما بعدها.

في معالجة السّبب الثّالث يقول كلاما يستوقف : (وأمّا من ظنّ بأنّ للموت ألما عظيما غير ألم الأمراض التي ربّما اتفق أن تتقدّم الموت وتؤدي إليه فعلاجه أن يُبيّن له إنّ هذا ظن كاذب، لأنّ الألم إنّما يكون للحي، والحي هو القابل أثر النّفس، وأمّا الجسم الذي ليس فيه أثر النّفس فإنّه لا يألم، ولا يحس، فإذاً الموت الذي هو مفارقة النّفس للبدن لا ألم له، لأنّ البدن إنّما كان يألم ويحسّ بأثر النّفس فيه، فإذا صار جسما لا أثر فيه للنّفس فلا حسّ له ولا ألم، فقد تبيّن أنّ الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم، لأنّه فراق ما به كان يحسّ ويتألّم)[1].

ما يقوله ابن مسكويه هو ظنٌّ ينبني على أوهام، لا أدري هل يقيم مقارنة بين جسد ميّت وجسد حي، فالجواب عنه ببساطة أنّ الميّت لا إحساس له، وأنّ الحيّ هو الذي يحس، فهذه من معقولات العقل البدهية، أم إنّه يخاطب المعتقدين لما سيحلّ بهم من ألم العذاب بعد الموت،ومن خلال الفصل الذي عالج فيه الخوف من الموت يتضح أنّ ابن مسكويه يخاطب الخائفين من العذاب بعد الموت وليس قبلها، وهو ما ذهب إليه ابن حزم في الفقرة السابقة، واتّضح أنّ ابن مسكويه تأثّر هو الآخر بنظرية أبيقور EPICURE، لا نرى مانعا من الاستفادة من هذه النّظرية إذا تمّ تهذيبها بما يتوافق مع النّقل تماما كما فعل الموفّقون، أمّا أن تُبتلع،وتلقى بهذه الكيفية في موضوع ذي جلل فالنّقلانية النّقدية ترفضه، ثم من باب الإنصاف يجب ربط المقال بوضعه، أبيقور لما وجّه الخطاب وجّهه للفلاسفة الطّبيعيين، لكن خطاب ابن مسكويه هو للمؤمنين، لقد حضرت الأطروحة العقلانية وغابت الأطروحة النّقلانية، والسؤال المطروح : أين ثقافة النّقل في الموضوع، لماذا نعالج الموضوع برؤية واحدة وليس برؤيتين إذا تعذّر الكلام أو كان المقام لا يسمح بالرؤية النّقلانية وحدها؟ وإذا كان العذر منتف عن ابن حزم بحكم نقلانية سُنّيته، فإن العذر منتف بالنّسبة لابن مسكويه، فعلى الرّغم من عقيدته الشّيعية التي تستبعد النّقلانية السّنية فإنّ آيات القرآن الكريم تبقى حاكمة في الموضوع، والعشرات منها تتكلّم عن تحصيل الألم والعذاب بعد الموت، ومنها عذاب القبر الذي تكلّمنا عليه في موضعه، كلاهما من عقول النّقل، ونقلانيون على الرغم منهم، لكن في موضوع عقدي مصيري لا يستقيم منهجا ومعرفة تقديم ما هو عقلاني على ما هو نقلاني لقوله تعالى : **(يأيّها الّذين ءامنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله)**[2]، وهذا تقديم بيّن، ومن خطورته المساس بعقيدة الوعيد .

---

[1] - تهذيب الأخلاق ص 221.

[2] - سورة الحجرات الآية 1.

3- الغزالي وابن رشد في ميزان النّقد

كان النّقل لعنة من اللّعنات التي توبعت بها الثّقافة الإسلامية منذ عهدها الباكر، كنّا نظن بأنّها قضية مصطنعة تلهّى بها العلماء والحكماء فردّ بعضهم على بعض، ونقد بعضهم بعضا في كبار الأمور وصغارها، ودخلت الفرق والمذاهب على الخط، وكثر الغمز واللّمز، وتهاجى القوم وتدابروا وتحاربوا، ومنهم من كفّر بعضهم بعضا، وقتل بعضهم بعضا كما فعلت المعتزلة في خلق القرآن بأهل السّنة، وأصبح هذا الموضوع مثار دراسات وأبحاث، وقدّمت حوله مشاريع فكرية وتصورات نظرية، وتدخلت فيها العلوم بما فيها الدّراسات الاستشراقية والاتجاهات المادّية والرؤى الجدلية إلخ، كنّا نظن بأنه موضوع مفتعل لا جدوى من إشعال جذوته، مضى وانتهى، لكنْ لمّا طرقنا بابه وجدناه مازال مفتوحا بل اتّسعت دائرته حين دخلت تيارات جديدة تنتعل نفس الصفات وترمي إلى نفس التّوجهات، ومنها ما هو أكثر شراسة وأبلغ في التّنكيل والوقاحة، فالجرح مازال ينزف منذ ذلك الوقت، فقضية البعث بالأرواح والأجساد قضية استوقفتني بين الغزالي وابن رشد، ونحن نستحضر ما دار بين الرجلين من انتقادات جوهرية مدارها حول قطبي الدّين والفلسفة، أو لنقل الشريعة والحكمة، أو لنخصّص أكثر بين الفلسفة الطّبيعية والعقل الطّبيعي والفلسفة الإسلامية والعقل الفطري التي كانت الموضوعات العقدية من بين أبرز القضايا التي تدفع للمناقشة والحوار،العقيدة ليست قضية كلامية أو فلسفية مجرّدة تُبحث بالمنطق والفلسفة فحسب بل إنّ إثارة قضاياها يجر مباشرة إلى مرتكزات الثّقافة الإسلامية وأصول معارفها التي هي ينابيع الحكمة في الموضوع، وبين أيدينا اليوم موضوع من موضوعات العقيدة كان مثار جدل وحوار بين الغزالي وابن رشد، بسط الغزالي الكلام فيه في كتابه»إحياء علوم الدين»، وقعّد قضايا الرد وحدّد الموضوعات التي آخذ بها الفلاسفة في الموضوع في كتابه» تهافت الفلاسفة»، مضمون الموضوع هل البعث يكون بالأرواح والأجساد أم بالأرواح فقط، وهي من ضمن الموضوعات التي نقد الفلاسفة فيها، ثم تعقّبه ابن رشد، فردَّ عليه في القضايا التي آخذ الفلاسفة عليها ومنها قضية البعث والفناء في كتابه» تهافت التّهافت»، توقفت المشادّة النّقدية عند كتاب» تهافت التّهافت» بسبب تقدم وفاة الغزالي سنة 505هـ وتأخّر وفاة ابن رشد إلى عام 595هـ، ولو اطّلع الغزالي على رد ابن رشد لصوّب مسائل عديدة، وقد اطلعتُ على ما كتباه في موضوع البعث والحشر فوجدت الغزالي اضطرب اضطرابا لا يليق بمقامه، وابن رشد قطع قطعا لا يستقيم مع حاله، وسنكشف عن ذلك فيما يأتي

من كلام، وعلى كلّ حال فالرّجلان من عقول النّقل الجبّارة في الثّقافة الإسلامية، ولهما أثربالغ على المعرفة التّقلانية السّائدة .

في كتابه تهافت الفلاسفة[1]، وفي آخر فصل من الكتاب بسط مذاهب الفلاسفة المتكلّمين في موضوع البعث ومواقفهم من بعث النّفس والبدن[2]، فقام بحصرها في ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول** يرى بأنّ الإنسان عبارة عن البدن والحياة التي هي عَرض قائم به، والنّفس لا وجود لها على الحقيقة، والموت تعدم النّفس والبدن معا، والبعث هو خلق جديد، يُخلق فيه الإنسان ابتداءً.
- **القسم الثاني** يرى بأنّ النّفس تبقى موجودة بعد الموت، وعند البعث يردّ البدن الأول لنفس الرّوح، أي: ترجع الرّوح لبدنها الأصلي.
- **القسم الثالث**: ترد النّفس إلى البدن سواء أكان من تلك الأجزاء أو من غيرها، بحيث تكون العائدة هي النّفس، أما المادّة فلا التفات إليها، لأنّ الإنسان هو إنسان بالنّفس لا بالمادة.

هذه الأقسام الثّلاثة حكم الغزالي ببطلانها، وتابعها قسما بقسم، وقدّم على ذلك مبررات البطلان، لكن أين استقرّ الغزالي؟ وما هو رأيه؟ الأمر غير ظاهر، فالظّاهر أنّه حصر الأقسام، ومن المفروض أن يكون مذهبه في واحد منها، والقسم المرجح الّذي من المفروض أن يبرز مزاياه العقدية، ويدافع عنه هو القسم الثّاني الذي يقرّ بأنّ البعث هو إرجاع الرّوح لبدنها الأصلي، وهو معتقد أهل السّنة وغيرهم، ومنهم الأشاعرة الذي هو على مذهبهم، لكنّه يكرّ على هذا القسم بالبطلان بقوله : (وأما القسم الثّاني وهو تقدير بقاء النّفس وردّه إلى ذلك البدن بعينه فهو لو تصور لكان مُعادا أي عودا إلى تدبير البدن بعد مفارقته، ولكنّه محال إذ بدن الميّت ينحلّ ترابا أو تأكله الدّيدان والطّيور ويستحل دما وبخارا وهواء، ويمتزج بهواء العالم وبخاره ومائه امتزاجا يبعد انتزاعه واستخلاصه)[3]، ثم يستطرد في ذكر الأوجه الّتي تنحلّ ويتحللّ بها البدن مما يبعد كما قال»انتزاعه واستخلاصه» وكأنّ الغزالي يتكلّم هنا عن بشر سيستخلص أو سينتزع، لقد جزّأ الموضوع وشيّأه طبيعةً وهو يعلم بأنّ الّذي سيعيد هو الله تعالى، الخالق لكلّ شيء،والّذي لا

[1] - تهافت الفلاسفة للإمام أبي حامد الغزالي، ص 196 وما بعدها.

[2] - يسمّي الغزالي الرّوح بالنّفس، فإذا قال « النّفس » فهو يعني الرّوح، فلينتبه لذلك .

[3] - تهافت الفلاسفة ص 202.

يستعصي عليه شيء، وهو من أغرب ما نجده عند الغزالي، وكأنّه في مجمل التفنيدات يعترض على قدرة الله في البعث وفي كيفية البعث، فهل يصعب على الله عز وجل أن يرجع الرّوح إلى بدنها وهو القائل في محكم التّنزيل جوابا على سؤال: **(أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه؟ بلى قادرين على أن نسوّي بنانه)**[1]، لقد غلب على الغزالي شهوة العقل في موضوع يحتاج إلى النّقل، وإذا التمسنا له العذر من جهة علمه بالحديث لكون بضاعته فيه مزجاة كما صرح بذلك في المنقذ من الضّلال فإنّ آيات القرآن الكريم حاضرة وقاطعة، ثم إنّه خالف مذهب الأشاعرة في كون الرّوح ترجع إلى بدنها في القبر، وفي يوم الحساب كما ذهب إلى ذلك الباقلاني في الإنصاف، والجويني في الإرشاد، والإسفراييني في التبصير في الدّين، والبيجوري في تحفة المريد، والنّووي في شرح مسلم،وابن خمير السّبتي في مقدّمات المراشد، وابن فورك في مقالات أبي الحسن الأشعري وغير ذلك، لقد شذّ الإمام الغزالي عن خطّ الأشاعرة في هذا الموضوع، واستهواه العقل على النّقل .

لكنّه في إحياء علوم الدين ظهر بوجه مخالف، فقد أشبع موضوع الموت بحثا وجمعا للمعلومات واستفاضة في التّحليلات وإن كانت بعض الآثار فيه واهية، وخالف مخالفة تامّة ما ذكره في تهافت الفلاسفة في إبطال القسم الثّاني، يقول: (وكلّ ما هو وصف للرّوح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطّل بموت الجسد إلى أن تعاد الرّوح إلى الجسد، ولا يبعد أن تعاد الرّوح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث، والله أعلم بما حكم به على كلّ عبد من عباده)[2]، وهو نفس التردّد الّذي أبداه هنا، يبدو الغزالي هنا محتارا في رجوع الرّوح إلى الجسد، فيذهب إلى أنّ بعض الموتى ترجع أرواحهم إلى أجسادهم وآخرين لا ترجع أرواحهم إلاّ في يوم البعث، بحسب ما قضاه الله على كل عبد من عباده، فانظر كيف نفى في تهافت الفلاسفة رجوع الرّوح إلى بدنها الأصلي، وكيف أثبت الرجوع لبعض دون بعض، والأمور كلّها من ظهر الغيب، ولم يقدّم بين يديه دليلا نقليا صريحا وصحيحا في الموضوع، وأما قوله: (ثم عند الدفن قد تردّ روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه)[3]، كلام لا يفيد التحقيق، لأن (قد) لا تفيد التحقيق إلاّ في كلام الله، وأمور العقيدة لا تقتضي التناقض

[1] - سورة القيامة الآية 3-4.

[2] - إحياء علوم الدّين 582/4.

[3] - المصدرالسابق ص 583.

ولا التضارب ولا الاضطراب لأنّ من مقتضياتها الحسم والقطع، وهو ما فعله ابن رشد لكنّه أدار وجهه عن النّقل كلية .

في تهافت التّهافت[1]، وفي آخر فصل منه، وضمن جملة من الردود يؤيد ابن رشد الغزالي في هذه القضية، فيذهب مذهبه، يقول: (وما قاله هذا الرجل - يريد الغزالي- في معاندتهم - يعني الزّنادقة والطّبيعيين - هو جيّد، ولا بدّ في معاندتهم أن توضع النّفس غير مائتة كما دلّت عليه الدلائل العقلية والشّرعية، وأن يوضع أنّ التي تعود هي أمثال هذه الأجسام التي كانت في هذه الدار، لا هي بعينها، لأنّ المعدوم لا يعود بالشّخص، وإنما يعود الموجود لمثل ما عدم لا لعين ما عدم كما بيّن أبو حامد.

ولذلك لا يصحّ القول بالإعادة على مذهب من اعتقد من المتكلمين أنّ النّفس عرض، وأنّ الأجسام التي تعاد هي التي تعدم، وذلك أنّ ما عدم ثم وجد فإنّه وُجد بالنّوع لا واحد بالعدد بل اثنان بالعدد، وبخاصّة من يقول منهم: إنّ الأعراض لا تبقى زمانين)[2].

أستغرب جدا من هذا الكلام، وأقف مندهشا أمام هذا الطّرح، لا لأنه قيل بهذه الكيفية ولكنّه صادر عن عقل من العقول الجبارة التي حافظت على "النّقل" ودفعت به إلى ميادين الفكروالمعرفة والحكمة، وحافظت على العقل بأن قرّبت إليه الحكمة اليونانية وقد هذّبها وشذّبها من براثين الفكر الطّبيعي وتمثل ذلك في شرحه لأورغانون أرسطو.

ابن رشد هنا يناقش الموضوع بخلفية فلسفية منطقية، وهذه الخلفية لا مكان لها في موضوع غيبي، فمن أوحى لابن رشد بالقول بأنّ الجسد إذا عُدم لا يعود بعينه بل بمثله، يعني أنّ الرّوح تعود لجسد غير جسدها الأصلي، وهذا مناف للعدالة الإلهية، وضرب لمصداقية الجزاء إذا كان الشّخص لا يعود بشخصه بل بمثله!، بل يعاد الإنسان على صيغة اثنين بالعدد لا الشخص بالواحد، وأما القاعدة المنطقية التي رمى بها في الموضوع (الأعراض لا تبقى زمانين) فمجالها الطّبيعيات لا الغيبيات، يجزم ابن رشد بأنّ البعث يكون بالأرواح فقط من دون الأجساد، وإذا كان بالأجساد فبأجساد أخرى غير أجساد أصحابها، وقد أعلن المخالفة في ذلك بما لا مزيد على بيانه، وما ذهب إليه لا دليل له من الغيب عليه .

---

[1] - تهافت التّهافت لأبي الوليد ابن رشد ص 390 وما بعدها.

[2] - المصدر السّابق ص 396.

4- نقد أوهام منكري عذاب القبر

وصلني شريط مسجّل من برنامج موضوع حواره»عذاب القبر»، للأسف كان ضيف الحوار ينتمي إلى شعبة الدراسات الإسلامية بشهادة جامعية، وبما أنّ الموضوع لا يخصّ البرنامج وحده، ولا صاحبة البرنامج معه،لأنه»عقيدة»، فهو عقيدة المجتمع والأمّة،في الحوار تخليط وتغليط تجاوز الحد، فإذا كان الحوار مكفولا لأيّ أحد بقوّة القانون فعلى الأقل أنّ الّذي يدير البرنامج ويتصدّى لمعالجة هذا الموضوع يجب أن يكون على دراية وعلم به،فالضّعف كان ظاهرا، والعجز عن المواكبة كان بائنا، وتحدّي الضيف كان قويّا، ليس لصاحبة البرنامج وحدها بل لملايين المسلمين، لقد استمعتُ للحوار بعناية، وسجّلت عليه ما يلي:

1. الموضوع هو من القضايا الغيبية، فالرّجل يناقش موضوعا مغرقا في الغيبيات، وهو"عذاب القبر"، كنت أظنّه مات واستيقظ من القبر ليحكي عن العذاب أهو موجود أم غير موجود، لكنه مال إلى النّفي، ونَفْيُ ما في الغيب هو كإثبات ما فيه، وأمامه قضايا واقعية هي الأهمّ من نفي عذاب القبر، وهي عذاب الإنسان قبل القبر، عذاب الإنسان وهو على وجه الأرض، الإنسان الذي تغوّل وأصبح وحشا ولا تزيده مثل هذه الخرجات إلا تغوّلا. تصورات تنفي وجود عذاب القبر لتجعل الناس تعيش العذاب فوق القبر.

2. طرق الاستدلال عنده معكوسة تماما، استند إلى القرآن ولا يوجد في القرآن ما ينفي عذاب القبر، بل في القرآن ما يشير إلى ذلك من وجوه:

- الأول هو وجه عام، وهو أنّ الله تعالى أمر نبيه أن يبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم، والبيان يقتضي الشّرح والتّفصيل والزيادة والتوضيح فضلا عن التأكيد، ولو كان القرآن وحده كافيا لما كان موجبا للبيان، وما جاء في أحاديث الجنائز وعذاب القبر داخل في البيان.
- الثاني أنّ في القرآن الكريم من الآيات ما يدلّ على ذلك، ففيه الآية التي ذكرتها صاحبة البرنامج والتي اعترض عليها بأنّها غير صريحة في عذاب القبر، والعقائد يحتاج فيها إلى الصّريح والواضح، مع العلم أنّ القرآن الكريم أجمل قضايا كثيرة في العقيدة من دون تفصيل فيها، فآمن بها العلماء من دون تجسيد ولا تمثيل ولا مزيد من التوضيح،

ثم إنّه لما نفى صريح الآية لم يثبت صريح معناها وما المراد بها، وفي القرآن آيات تدلّ على ذلك منها قوله تعالى : **"فأمّا من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا، وينقلب إلى أهله مسرورا، وأمّا من اوتي كتابه وراءظهره فسوف يدعو ثبورا، ويصلّى سعيرا"**[1]، كل هذا بصيغة الاستقبال، وليس في الآن، متى يؤتى كتابه ويعرف مقامه، سؤال يجيب عليه منكر عذاب القبر. وقوله تعالى: **"ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت، والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون"**[2]. ومعلوم أنّ اللحظة هي عند الموت، والملائكة تقبض الرّوح، وأخرجوا أنفسكم أي من القبر، والبخاري بوّب في عذاب القبر من الصحيح فذكر هذه الآية، والآية الأخرى قوله تعالى :(**ممّا خطيئاتهم أُغرقوا فأُدخلوا نارا، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا**)[3]، ففعل»أغرقوا» يدلّ على حدث وقع في الماضي والفاء في» فأدخلوا» هنا فورية، وتدلّ على الحاضر، أي أنّهم ذاقوا النّار بعد غرقهم مباشرة، وهؤلاء ليسوا مدفونين في التّراب بل في اليمّ غارقين، وهذا فيه بيان على أنّ العذاب يكون في القبر وفي غير القبر، فلماذا ارتبط العذاب بالقبر؟ الجواب لغلبة الدّفن على غيره، لكن السّؤال والعذاب والبشارة الخ حاصلة بعد الموت على الفور. ومن الآيات الدّالة على عذاب القبر قوله تعالى: (**النّار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم السّاعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب**)[4].

3. من طرق الاستدلال المعكوسة أنّه طالب بالدّليل على أنّ عذاب القبر موجود، وأمامه العشرات من الأحاديث النّبوية الصّحيحة، والحديث الصّحيح أجمع العلماء من الأصوليين والفقهاء والمحدّثين وغيرهم على أنّه دليل بحد ذاته، فأيّ دليل أقوى من هذا الدّليل؟ وأيّ دليل بعد هذا الدّليل.

4. وصْفُ ما صحّ في الموضوع بأنه من أخبار الآحاد هو هروب، وتعلّق غير علمي وغير سليم، ففيه الآحاد وغير الآحاد، ولا نريد أن نثقل الموضوع بما تواتر فيه من أحاديث،

---

[1] - سورة الانشقاق (7-12).
[2] - سورة الأنعام الآية 94.
[3] - سورة نوح الآية 26.
[4] - سورة غافرالآية 46.

وقد روى أحاديث القبر عن النّبي صلّى الله عليه وسلم أكثر من ثلاثين صحابيا، وما تواتر ليس بالقول فحسب بل بالفعل والعمل والتقرير، وحصل الإجماع على ذلك، وأمور الجنائز مقطوع بها لأنها "عملية"، ومن عمل النّبي وعمل الصّحابة وعمل أهل المدينة في البقيع.

5. قول الضّيف بأنه لا يوجد إلاّ وحي واحد هو القرآن حسم النّقاش، فلا يوجد في معرض الإلغاء إذن عذاب القبر وحده بل قضايا كثيرة من أمور العقيدة والتّشريع لم تعد تلزمه، وأظن بأنها تنتظر دورها.

6. تسمية الملكين اللّذين يسألان بمنكر ونكير تتضمّن جوابا حاسما على أنّ المُنكر لعذاب القبر سيجد أمامه منكرا ونكيرا، تسمّيا بذلك لأنهما يختبران من ينكر ومن يجحد، وفيه حكمة من أنّ التحقّق من الجحود والإيمان هما الضمانة الأولى لمعرفة المصير، فمن أنكر وجحد فإنّه لا يتحمّل تبعات جزئيات الإيمان الأخرى، ومن آمن ونجح في السؤال كان هذا علامة البشارة بالخير، ولا أخال المنكر للعذاب في القبر إلّا ناكرا لعالم القبر جملة وتفصيلا، لأنّه لا يستقيم أن ينكر العذاب ويثبت السؤال وأسماء الملائكة.

7. إنكار الشّيء بذات الشّيء نفسه هو إثبات له، المنكر ينكر السّنة، ثم يتوسل بالسّنة في قصّة المرأة اليهودية التي دخلت على عائشة وحدثتها عن عذاب القبر فأنكرت ذلك لينكر هو أيضا عذاب القبر بها، القصّة قد تكون صحيحة، ولها مستلزمات من الفهم والمعرفة مما قعّده العلماء قبل قرون خلت من معرفة سبب الورود والنسخ، وقد يكون في مرحلة ما قبل نزول الوحي بالموضوع، فالنّبي بقي نبيا ورسولا إلى آخر مرحلة من حياته، وحتّى بعد مماته إلى أن تقوم السّاعة.

8. نكران شطر من السّنة أو السّنة كلّها يترتّب عليه انهيارات في المعرفة الإسلامية، سيتأثر الفقه الإسلامي بحجّة أنّ أحكاما شرعية كثيرة ستُلغى لأنّها مبنية على الحديث، وإذا أُلغيت تلك الأحكام أصبح المعتنق في حلٍّ من أمره في مجال العبادات والمعاملات، وسيتأثر التّفسير لأنّ قسما عظيما منه بتفسير السّنة وأقوال الصّحابة والتّابعين، وستتأثر العقيدة لأنّ قسما منها سيزول مثل عذاب القبر، ونزول عيسى والدّجال وغير ذلك، وسيعاد النّظر في أحاديث الفتن وأشراط السّاعة التي تُبنى في

قسم عريض منها على السّنة والحديث،وستزول القراءات القرآنية لأن»القراءات سنّة يأخذها الآخر عن الأول»، وإذا مُست القراءات مُسّ القرآن الكريم، وهكذا ....

9. عذاب القبر غيب، الكلام فيه يستلزم الخبر المنبي بالوحي، لا يوجد أحد مات فقام من القبر يثبت أو ينفي، ولذلك فمنطلق الاعتقاد به من الخبر، وهو الحديث أو القرآن أو هما معا، وأمّا الذي يطالب بالدّليل فهو المطالب به، لأنّ الشّرع استقرّ على وجوب الإيمان بالدّليل، ولذلك فالنّافي عليه بدليل النفي، أما التعلق بالأصلين بالرّكون إلى التأويل في واحد، ونكران الآخر فلا يستقيم، وما زلنا في حاجة إلى دليل نفيٍ مثلما آمنّا بدليل إثبات.

10. لا أدري ما الّذي هيّجه على هذا الموضوع، هل الاعتبارات السياسية التي جزم بها كانت تقف وراء نسج "أسطورة عذاب القبر" أم دوافع سياسية أخرى دفعته لنفي عذاب القبر؟

الخاتمة:

بسطنا في هذا المقال موضوع الموت الذي نعني به "العلم بالموت" في إطار "المعرفة الأسمى"، المعرفة التي تُقربنا من حقيقة الموت، فمن عرف الموت على حقيقته عرف الحياة على حقيقتها والعكس، لكن التراث حافل بتصورات عن الموت والحياة بعضها سقيم وبعضها الآخر سليم، حاولنا أن نتتبع أشهر الآراء وأقوى النظريات عند فلاسفة كبار من أمثال ابن حزم وابن رشد والغزالي وابن مسكويه رحمهم الله، وأن نُتابع ما يُذاع ويُنشر في موضوع إنكار عذاب القبر، نأمل أن يكون هذا المقال قد حقق المراد، وصلى الله وسلم على مُحَمَّد وآله وصحبه.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش، وهو المصحف المحمّدي الشّريف، طبعته مؤسسة مُحَمَّد السّادس لنشر المصحف الشّريف في طبعته الثّانية لعام 2011م، مطبعة فضالة بمدينة المحمّدية، المملكة المغربية.
- ابن رشد، أبو الوليد القاضي، تهافت التّهافت، قدّم له وعلّق عليه أحمد شمس الدّين، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، الطّبعة الثّانية 2002م.
- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، حققه ابن الخطيب، المطبعة المصرية، الأولى، مكتبة الثّقافة الدّينية.
- البخاري، محمّد بن إسماعيل الإمام الحافظ، الجامع الصّحيح بشرح الحافظ ابن حجر العسقلاني المسمى بفتح الباري، تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، بإشراف وعناية عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة 1379 هـ.
- ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم، تحقيق الدّكتور إحسان عباس، طبعة المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، الأولى 1983م.
- خروبات مُحَمَّد، المعرفة الأسمى أو نقلانية موت الموت، ط2، مطبعة شمس برانت سلا، المغرب، 2001م.
- شورون، جاك، الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، العدد 76، أبريل 1984م، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب بالكويت.
- الغزالي، أبو حامد، تهافت الفلاسفة، قدّم له وضبط نصه أحمد شمس الدّين، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، الطّبعة الثّانية 2002م.
- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدّين، وبهامشه تخريج الحافظ العراقي المسمّى المغني عن حمل الأسفار، مكتبة مصر، طبعة 1998م.
- - Essai sur la signification de la mort, Jules Vuillemin' presse universitaires de France 'Paris ' Ed 1948.
- المواقع الإلكترونية:
- https://www.youtube.com/watch?v=gDsGxZAtvRE